في مفهوم اللغة عند دي سوسير

سعيد أحمد البطاطي*

الملخّص

لم يقدّم دي سوسير تعريفا حديّا للغة، لكنّه أظهر لها تصوّرا واضحا، من خلال ميزِه اللغةَ من الأمور الأخرى التي تُلابِسُ كلَّ حدثٍ لغويّ؛ لذا كان من غير المنطقيّ أن يُبْحثَ في كتاب دي سوسير عن نمط الحدود المألوفة في مدوّنات النحو العربيّ، أو أن يوزنَ كتابُه أو فصلٌ منه بتعريفٍ حدِّيٍّ، مهما كان قريبا من تصوّرات دي سوسير في شأن اللغة. وكان الدكتور حسام النعيميّ قد سلك هذا المسلك من الموازنة بين كتاب دي سوسير وحدِّ ابن جنّي اللغةَ بأنّها "أصواتٌ، يُعبِّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم"؛ فناقش البحثُ ما قاله النعيميّ في هذا الشأن، وخَلُصَ إلى أنّ دي سوسير لم يسعَ إلى التعريفِ باللغة من زاوية واحدة، بل كان سعيُه إلى التعريف بها من خلال إبراز ملامحها العامّة، وسماتها البارزة، ومضامينها الخاصّة، التي تُظْهِرُ صورتَها الواضحة غير الملتبسة؛ من زوايا متعدّدة، تُظهرُ كلُّ زاوية منها واحدا أو غيرَ واحد من تلك المضامين والسمات والملامح التي من مجموعها يتحصّل مفهوم اللغة عند دي سوسير؛ إذ لا تنفهمُ اللغة عنده، من جانب واحد، بل من جوانب متعدّدة؛ فهي– عنده– حقيقة اجتماعيّة، وظاهرة سايكولوجيّة، وعلامة سيميائيّة، وشكلٌ لا مادّة، وراهنٌ معزول عن التاريخ، وبنية نسقيّة، ومجموعة من القيم الخالصة. وليستْ مضمونا واحدا من هذه المضامين، بل هي هذه المضامين كلّها. وهي مضامين لا تفي بإيضاحها الحدود المنطقيّة، بل يحتاج أمرُ جلائها إلى التوصيف، والشرح، والتدرّج في بناء المفاهيم.

المقدمة:

من المعلوم أنّ دي سوسير لم يُقدِّم تعريفا حديّا للغة[1]، على نحو ما هو مألوفٌ في مدوّنات النحو العربيّ التي يُعنى أصحابُها بالحدودِ عناية فائقة، لكنّه أظهر لها تصوّرا مفهوميّا واضحا غاية الوضوح من خلال ميزِه اللغةَ من الأمور الأخرى التي تُلابِسُ كلَّ حدثٍ لغويّ، وتُصاحبُه؛ لذا كان من غير المنطقيّ أن يُبْحثَ في كتاب دي سوسير عن نمط الحدود المألوفة في مدوّنات النحو العربيّ، أو أن يوزنَ كتابُه أو فصلٌ منه بتعريفٍ حدِّيٍّ، مهما كان قريبا من تصوّرات دي سوسير في شأن اللغة، ويتلاقح معها.

وكان الدكتور حسام النعيميّ قد سلك هذا المسلك العجيب، من الموازنة بين كتاب دي سوسير وحدِّ ابن جنّي اللغةَ بأنّها "أصواتٌ، يُعبِّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم"[2]، وذلك في كلامٍ له طويلٍ، أجدني مضطرّا إلى نَقْلِه بطوله؛ ليظهرَ منه ما أظنُّه أحكاما جائرةً، أطلقها على عبارة سوسير ومقولاته، ما قاده إليها إلّا أنّه كان يبحث في كتابه عن تعريفٍ حدِّيٍّ للغة، كتلك التعريفات الحدِّيَّة التي يصادفُها كلُّ مَن ينظرُ في مدوّنة من مدوّنات النحو العربيّ. قال: "تتشعّبُ عبارة دي سوسير، وتنتشر في مواضع متعدّدة من كتابه من الفصل الثالث والرابع والخامس (ص 26– 28)، وهي تتحدّث أوّل الأمر تحت عنوان: تعريف اللغة، ثُمّ لا تكاد تجد لها تعريفا تستطيع أن تقتبسه من الكتاب بعبارات مؤلّفه، وإنّما عليك أنت أن تخرجَ بتعريف اللغة بالمفهوم السوسوريّ من خلال كلامه على اللغة، واللسان (اقترحنا له الكينونة اللغويّة)، والفرق بين اللغة والكلام. فقد بدأ

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ــ كلية الآداب ــ جامعة حضرموت .

كلامُه عن الهدف الطبيعيّ لعلم اللغة، مشيرًا إلى المنهج الصوتيّ، والمنهج الدلاليّ، والمنهج التاريخيّ، في دراسة الكلمة، ثُمّ انتقل إلى ثنائيّاته في النطق والسمع، والصوت والفكرة، والفرديّة والاجتماعيّة، والثبات والتطوّر، ثُمّ عاد ليسأل: (ولكن ما اللغة (Langue)؟ ينبغي أن نميز بينها وبين اللسان البشريّ (Langage)، فاللغة جزء محدّد من اللسان، مع أنّه جزء جوهريّ- لا شكّ- اللغة نتاج اجتماعيّ لملكة اللسان، ومجموعة من التقاليد الضروريّة التي تبنّاها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة). ولا أراك ظفرت بحدّ اللغة من هذا الكلام، فما النتاج الاجتماعيّ؟ وما التقاليد الضروريّة التي تبنّاها المجتمع؟ وكيف يسوغ استعمال هذا العموم في محاولة تحديد مفهوم من المفاهيم التي ينبني عليها الكتاب؟ ومن أجل ذلك نجده يعود مرّة أخرى ليتحدّث عن علاقة اللغة بملكة النطق... ثُمّ يحدّثنا عن الصورة الصوتيّة... ثُمّ يتقدّم خطوة أخرى في إيضاح مسألة اللغة... وأخيرا يحدّثنا عن الكلام واللغة ليذكر لنا في خلال ذلك وجود اللغة على هيأة ذخيرة من الانطباعات المخزونة في أدمغة أفراد المجتمع... ولو أردت استخراج حدّ اللغة من كلّ ما مرّ، فإنّك تستطيع أن تقول: إنّ اللغة بالمفهوم السوسوريّ هي: (مجموع الذخيرة من الصور الصوتيّة الدالّة المخزونة في أذهان الأفراد في مجتمع ما). وانظر كيف جمعنا المفاهيم التي نثرها سوسور لنخرج بحدّ اللغة عنده. ولا شكّ في أنّ إضفاء سمة الاجتماعيّة على هذه الصور الصوتيّة الذهنيّة، يجعلها ظاهرة اجتماعيّة. كذلك لا يمكن أن يكون لهذه الصور الذهنيّة وجود اجتماعيّ حقيقيّ، بل لا تكون لها حياة ما لم يمارسها أفراد المجتمع، وتتحوّل من صور صوتيّة ذهنيّة إلى أصوات لغويّة حيّة، وهذا ما عبّر عنه سوسور بمصطلح (الكلام). وإلى مثل هذا كلّه سبق ابن جنّي بعبارة موجزة دقيقة، حين قال عن اللغة: إنّها ((أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم))، وانظر إلى هذا الوضوح والإيجاز في ذكر حدّ اللغة. فذكر القومِ تصريحٌ باجتماعيّة اللغة، فاللغة عنده إذن ظاهرة اجتماعيّة لا تكون إلاّ في قوم. والتعبير عن الأغراض دليل التواصل، لأنّ مستعمل اللغة لا يُلقي الكلمات على أنّها أصوات لا فائدة منها، وإنّما لا بُدّ أن يكون للمتكلّم غاية من كلامه، كي يتمّ نقل الفكرة من دماغه إلى دماغ المستعمل. وذِكْرُ الأصواتِ تصريحٌ بماهيّة الدوالّ التي كانت وسيلة تواصلٍ بين هؤلاء القوم، ولا شكّ في أنّ هذه الأصوات الدالّة كانت مصطلحا عليها قبل أن تُخْزَنَ صورُها في أذهان أفراد المجتمع، ثُمّ لمّا دعتِ الحاجة إلى استعمالها تحوّلت من صور صوتيّة في الذهن إلى أصوات لغويّة صادرة عن جهاز النطق الإنسانيّ. وهكذا نجد التلاقي بين فكر سوسور وعبارة ابن جنّي التي تقدّمتْها بما يقرب من ألف عام"[3]. ولي على مقالة النعيميّ هذه، وقفاتٌ، أوجزها فيما يأتي:

1- أتّفق مع النعيميّ في مسألة (التلاقي بين فكر سوسور وعبارة ابن جنّي التي تقدّمتْها بما يقرب من ألف عام).

2- لم ألحظ ذلك التشعّب الذي لحظه النعيميّ على عبارة سوسير. فما عدّه النعيميّ تشعّبا وانتشارا، يمكن أن يُعدَّ تدرّجا منهجيّا، مقصودا لبناء تصوّرٍ مفهوميّ

عامّ عن اللغة، بالنظر إليها من زوايا متعدّدة، لا من زاوية واحدة، هي: زاوية أنّها أصوات معبِّرة، حسبُ، إذ نظر سوسير إلى اللغة من زاوية أنّها ظاهرة اجتماعيّة؛ فقدّم لها مفهوما في هذا الشأن، ومن زاوية أنّها أصوات؛ فقّدم لها مفهوما في هذا الشأن، ومن زاوية ما تتألّف منه العلامةُ اللغويّة؛ فقدّم لها مفهوما في هذا الشأن، وهكذا تعدّدت زوايا النظر؛ فتعدّدت المفهومات بتعدّد تلك الزوايا. ثُمّ هو– أعني سوسير– كان يبني مفهوماته في شأن اللغةِ بناءً تدرّجيّا، يعتمد فيه الوصفَ، والشرحَ، والتمثيلَ، والتجريدَ والتصنيف. وبناءٌ من هذا النوع، لم تكن به حاجةٌ إلى التعريف الحدّي الذي لا تتشعّبُ فيه العبارة، ولا تنتشر، بل به حاجةٌ إلى ربط السوابق باللواحق، وتأسيسِ اللاحق على السابق، حتّى يكتمل المفهومُ، وتتجلّى الملامحُ، من خلال جمع الصور المأخوذة من زوايا متعدّدة، والتأليفِ بينها في مظهرٍ نهائيّ عامّ. هذا المظهر النهائيّ العامّ هو الكتابُ كلُّه.

3– أظنُّ أنّ النعيميّ لم يكن موفّقا توفيقا علميّا سديدا، حين ألمح إلى أنّ سوسير قد أخفق في محاولةِ تقديمِ تعريفٍ للغة بعبارات واضحة. إنّ النعيميّ كان يبحثُ في كتاب سوسير عن التعريف الحدّي، المألوفِ في المدوّنات العربيّة، ومن العسير عليه أن يجد هذا التعريف الحدّي عند دي سوسير، الذي يريد تعريف اللغة لا من خلال الحدّ المنطقيّ، وإنّما من خلال المفهوم العامّ، والتصوّرِ العامّ، وتحديدِ الملامحِ العامّة المميّزة، وإنشاء المتقابلات والثنائيّات المسهمة في تصوّر الموصوفات. ولسنا في شأن التهوين من أمر التعريف بالحدود المنطقيّة، ولكنّنا نريد أن نقولَ: إنّ سوسير كان يريد أن يُبرز اللغة بأنها حقيقة لها ملامح متعدّدة، وتُرى من زوايا مختلفة، لا من زاوية واحدة، وتوصف بأوصاف متنوّعة بقدر اختلاف زوايا النظر إليها. ولن تجدَ غايةٌ من هذا النحوِ ضالّتَها في التعريفات الحديّة. ولعلَّ البحثَ عن حدّ اللغةِ في كتابٍ تمنهج على نحو ما تمنهج به كتاب سوسير، يحول دون استيعاب منهج سوسير، وغايتِه.

4–لقد اختزل النعيميّ كلَّ التصوّرِ السوسيريّ للغة في مقولة ابن جنّي: (اللغة أصوات يعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم). ويبدو لي أنّ هذا الاختزال لا يقوم على أساس مقبول من الموازنة الصحيحة بين منهجين؛ إذ الموازنة– هنا– بين بعضِ سطرٍ وكتابٍ عددُ صفحاتِه: مائتان وست وسبعون صفحةً، بين مفهوم مجمل بحدٍّ، في أقلَّ من سطر واحد، ومفهومٍ مفصّل، ومبيّن، ومشروح، بكتاب كامل. ثُمّ إنّ المعطيات المعرفيّة عن اللغة التي نخرج بها من كتاب دي سوسير، لا يمكن أن نخرج بها من حدّ ابن جنّي، إذا قُرِئَ معزولا عن كتاب دي سوسير، بل إنّ كتابَ دي سوسير هو الذي يُجلّي لنا الأبعاد المتجاوِزة في حدِّ ابن جنّي.

5– إنّ القول بأنّ ابن جنّي قد تجاوز مفهوم اللغة عند دي سوسير، هو قولٌ قد يؤدّي إلى تعطيل معرفيّ؛ إذ من نتائجه رفضٌ للحداثة لا مسوّغ له إلاّ دعوى أن لا جديد فيها. والواقع أنّ المناهج الحديثة– إذا استوعبت استيعابا واعيا بعد معرفة أصيلة، وعميقة، بالتراث– تسهم إسهاما فاعلا في اكتشاف

تراثنا، واكتشاف مدى أصالته وأبعاده المعرفيّة والمنهجيّة، ووضعِه في مكانه المناسب اللائق به من تاريخ المعرفة اللسانيّة العالميّة. وحدُّ ابن جنّي اللغةَ لم تُكتشف أبعادُه المنهجيّة، والمعرفيّة، الأصيلة، إلاّ في ضوء من اللسانيّات المعاصرة، ولعلَّ النعيميَّ نفسَه لم يكن ليتيسّرَ له أن يُظهرَ ما فيه، من أبعاد منهجيّة ومعرفيّة أصيلة وعميقة ومتجاوِزة- على النحو الذي أظهره في كلامه السابق- لولا أنّه أفاد إفادةً واعية من لسانيّات دي سوسير، ووظّف هذه الإفادة الواعيّة في استجلاء مضامينه وأبعاده المنهجيّة والمعرفيّة، وذلك حين قال في آخر كلامه السابق تلخيصا لما تقدّم منه: "وإلى مثل هذا كلّه سبق ابن جنّي بعبارة موجزة دقيقة، حين قال عن اللغة: إنّها ((أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم))، وانظر إلى هذا الوضوح والإيجاز في ذكر حدّ اللغة. فذكرُ القومِ تصريحٌ باجتماعيّة اللغة، فاللغة عنده إذن ظاهرة اجتماعيّة لا تكون إلاّ في قوم. والتعبير عن الأغراض دليل التواصل، لأنّ مستعمل اللغة لا يُلقي الكلمات على أنّها أصوات لا فائدة منها، وإنّما لا بُدّ أن يكون للمتكلّم غاية من كلامه، كي يتمّ نقل الفكرة من دماغه إلى دماغ المستعمل. وذِكْرُ الأصواتِ تصريحٌ بماهيّة الدوالّ التي كانت وسيلة تواصلٍ بين هؤلاء القوم، ولا شكّ في أنّ هذه الأصوات الدالّة كانت مصطلحا عليها قبل أن تُخْزَنَ صورُها في أذهان أفراد المجتمع، ثُمّ لمّا دعتِ الحاجة إلى استعمالها تحوّلت من صور صوتيّة في الذهن إلى أصوات لغويّة صادرة عن جهاز النطق الإنسانيّ. وهكذا نجد التلاقي بين فكر سوسور وعبارة ابن جنّي التي تقدّمتْها بما يقرب من ألف عام"[4]، فأنتَ تلحظ- هنا- مقدار إسهام مقولات دي سوسير ومعطيات لسانيّاته في كلام النعيميّ الشارح لحدِّ ابن جنّي، وأنّه لا يُمكن أن يُشرحَ هذا الشرح البديع- على النحو الذي شُرِح به- إلّا في هدي معطيات تلك اللسانيّات.

6- يُخيّل إليّ أنّ النعيمي لم يقرأ كتاب دي سوسير كلّه، بل قرأ المقدّمة وحدها، إذ يشير إلى الفصول: الثالث، والرابع، والخامس من فصول الكتاب، ويدّعي أنّه لم يعثر على تعريف للغة عند سوسير، يُقتَبس منها. وقد فاته أنّ تلك الفصول التي جعلها فصولا من كتاب دي سوسير إنّما هي فصول من مقدّمةِ كتابِه، حسبُ.

سبقتِ الإشارة إلى أنّ دي سوسير إنّما بنى تصوّراتِه عن اللغة، من خلال ميزه اللغةَ من الأمور الأخرى التي تُلابِسُ كلَّ حدثٍ لغويّ وتُصاحبُه، وأنّه بنى مفهومه عن اللغة بناءً تدرُّجيّا بالنظر إليها من زوايا متعدِّدة ، لا بالنظر إليها من زاوية واحدة. وهذا ما تحاولُ مقالتُنا أن تظهرَ شيئا منه فيما بقي لها من أسطر وصفحات، في حدود ما اشتملتْ عليه مضامين الترجمة العراقيّة لمحاضرات دي سوسير التي اعتمد عليها النعيميّ نفسه، وفي حدود ما يكشفُ عن خلافِ ما ظُنَّ أنّه أحكامٌ جائرةٌ أطلقها في شأن مفهوم اللغة عند دي سوسير، في كلامه المنقول آنفا.

فمن زاوية ميز اللغةِ من مجموع العناصر[5] التي تتمثَّلُ في كلِّ حدثٍ لغويٍّ، يفضي التصوّر السوسيري إلى أنّ اللغة (Langue)[6] جزء محدّد، وجوهريّ، ممّا يمكن أن يُصطلح عليه باللسان البشريّ

(Langage)[7]. فأمّا أنّها الجزء المحدّد من اللسان البشريّ؛ فلأنّها تتماز من سائر عناصره الأخرى كلّها، بالبعد الاجتماعيّ المتمثّل في التقاليدِ اللغويّة التي تواضع عليها المجتمع، وخضع لها سائر الأفراد. وأمّا أنّها هي الجزء الجوهريّ من دون سائر أجزاء اللسان البشريّ؛ فلأنّها هي التي تقبلُ التأطيرَ والتنظيمَ على وفق منهاج لغويّ صرف.

وفي هذا الشأن قال دي سوسير: "فاللغة جزء محدّد من اللسان[8]، مع أنّه جزء جوهريّ، لا شكّ. اللغةُ نتاجٌ اجتماعيٌّ لملكة اللسان، ومجموعةٌ من التقاليد الضروريّة التي تبنّاها مجتمعٌ ما؛ ليساعدَ أفرادَه على ممارسة هذه الملكة. وعلى العموم اللسانُ متعدّد الجوانب، غيرُ متجانس، يشتمل على عدّة جوانب في آنٍ واحدٍ كالجانب الفيزياويّ (الطبيعيّ)، والجانب الفسلجيّ (الوظيفيّ)،والجانب السايكولوجيّ (النفسيّ). واللسان ملك للفرد وللمجتمع، لا يمكن أن نصنّفه إلى أي صنف من أصناف الحقائق البشريّة[9] ؛ لأنّنا لا نستطيع أن نكشف عن وحدته. أمّا اللغة، فعلى النقيض من ذلك: لها كيانٌ موحّدٌ قائمٌ بذاته؛ فهي تخضع للتصنيف ، وتحتلُّ المركز الأوّل بين عناصر اللسان ، وهذا التصنيف يُضفي نظاما طبيعيّا على كتلة غير متجانسة (اللسان) لا يمكن أن تخضع لأي تصنيف آخر"[10].

ومعنى هذا: أنّ اللسان البشريّ يتألّف من عناصر لا تنتمي إلى حقل واحد ، وإنما هي من حقول متعدّدة ومختلفة وغير متجانسة؛ ذلك أنّ مفهوم اللسان البشري – بحسب سوسير – يشمل كلّ العمليّات التي تكون بها الدائرةُ الكلاميّة المحتاجة إلى وجود شخصين في الأقلّ[11]، لاكتمالها، الشخص الأوّل هو المتكلّم، والآخر هو السامع؛ إذ تبدأ الدائرة الكلاميّة من دماغ المتكلّم "حيث ترتبط الحقائق الفكريّة (الأفكار) بما يماثلها من الأصوات اللغويّة (الصور الصوتيّة) التي تستخدم للتعبير عن هذه الأفكار. فالفكرة المعيّنة تثير الصورة الصوتيّة التي ترتبط بها"[12]، وهذه عمليّة سايكولوجيّة "تتبعها عمليّة فسلجيّة ؛ إذ يرسل الدماغ إشارة مناسبة للصورة، إلى الأعضاء المستعملة لإنتاج الأصوات؛ فتنتقل الموجات الصوتيّة"[13] من فم المتكلّم إلى إذن السامع، و"هذه عمليّة فيزياويّة محضة"[14]، وتستمرّ الدائرة الكلاميّة عند السامع "ولكن بأسلوب معكوس؛ إذ تسير الإشارة من الأذن إلى الدماغ"[15]، وهذا "إرسال فسلجيّ للصورة الصوتيّة"[16].

ويحصل في دماغ السامع "الربط السايكولوجيّ بين الصورة والفكرة، فإذا تكلّم"[17] بدأ فعلٌ جديد من دماغه إلى دماغ المتكلّم "متّبعا خطّ السير نفسه الذي سار فيه الفعل الأوّل، ومارًا بالمراحل نفسها"[18] التي مرّ بها الفعل الأوّل: فعل المتكلّم؛ فتكتمل– حينئذٍ– الدائرة الكلاميّة التي قسمها سوسير على أجزاء، هي[19]:

1– جزء خارجيّ وجزء داخليّ: يحتوي الجزء الخارجيّ على الرنات الصوتيّة التي تسير من الفم إلى الأذن، ويحتوي الجزء الداخليّ على ما عدا ذلك من عناصر اللسان البشريّ: مكوّنات الدائرة الكلاميّة.

2– جزء سايكولوجيّ وآخر غير سايكولوجيّ: يحتوي الجزء السايكولوجيّ على الربط بين الفكرة والصورة

الصوتيّة ، وعلى استدعاء إحداهما الأخرى ، وعلى عمليّة الكلام، ويحتوي الجزء غير السايكولوجيّ على "الأعمال الفسلجيّة التي تقوم بها الأعضاء الصوتيّة، كما يضمُّ الحقائق الفيزياويّة الواقعة خارج الفرد"[20].

3- جزء إيجابيّ فعّال وجزء سلبيّ غير فعّال: يحتوي الجزء الإيجابيّ الفعّال على كلّ شيء ينتقل من مركز الارتباط لدى المتكلّم، إلى أذن السامع، ويحتوي الجزء السلبيّ غير الفعّال على كلّ شيء ينتقل من أذن السامع إلى مركز الارتباط عنده.

4- جزء يخصّ وظيفة التنفيذ (الكلام) وجزء يخصّ وظيفة الاستقبال (الاستماع والفهم): يحتوي الجزء الذي يخصّ وظيفة التنفيذ على كلّ الأشياء الفعّالة في الجزء السايكولوجيّ عند المتكلّم، ويحتوي الجزء الذي يخصّ وظيفة الاستقبال على كلّ الأشياء غير الفعّالة عند السامع.

هكذا تجد دي سوسير نظر إلى اللغة من زاوية أنّها كيانٌ متجانسٌ في مجموع غير متجانس؛ فحدّد موقعها من هذا المجموع منظورا إليها من هذه الزاوية. ثُمَّ ستجده يُدير زاوية النظر مرّة أخرى، ويحصرها في جانبٍ واحدٍ من جوانب هذا المجموع، يميزُ من خلاله اللغةَ (Langue) من الكلام (Parole)، بعد أن مازها- قبلُ- من مجموع جوانب اللسان البشريّ كلّها. هذا الجانبُ هو الجزء السايكولوجيّ (النفسيّ)[21] – من أجزاء الدائرة الكلاميّة- الذي يُسهمُ في أن "تَتَبَلْوَرَ اللغةُ اجتماعيّا"[22]، وله الأثر البالغ فيما أسماه بـ"ملكة الارتباط والتنسيق"[23] التي "لها دور أساسيٌّ في ترتيب اللغة بهيأة نظام"[24]. ويحتوي الجزء السايكولوجيّ على جانبين: جانب اجتماعيّ هو اللغة (Langue) ، وجانب فرديّ هو الكلام (Parole). وقد يمكن إجمالُ التصوّر السوسيريّ في شأن ميز أحدهما من الآخر، بالبنود الآتية[25]:

1- اللغة والكلام شيئان متلازمان، ولكنهما غير متماهيين؛ إذ كلاهما مُكَوِّنُ الجزءِ السايكولوجيّ من أجزاء الدائرة الكلاميّة؛ وإذ "يعتمد أحدهما على الآخر"[26]، و"لكنّ اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميّزين تماما"[27].

2- اللغة حقيقة اجتماعيّة[28] من جهة أنّها صُوَرٌ وانطباعات ذهنيّة في عقول المتكلّمين جميعهم، ونظامٌ نحويّ خامد في أدمغة مجموع الأفراد[29]. فاللغة غير كاملة في الفرد، بل يكتمل وجودها في الجماعة اللغويّة كلّها. ولو أمكن أن نحصل على مجموع صور الكلمات والنُظُم النحويّة، المخزونة في عقول مجموع الأفراد، لأمكن أن نميز الجزء الاجتماعيّ الذي يؤلّف اللغة، فهو المخزن الذي يملؤه أفراد الجماعة اللغويّة كلّهم عن طريق الاستعمال الفعّال للكلام[30]. أمّا الكلام فعلى العكس من ذلك، إذ هو فعل فرديّ من جهة أنّه الجزء التنفيذيّ من عناصر اللسان البشريّ ، والمجموع "لا يقوم- أبدا- بعمليّة التنفيذ ؛ لأنّ عمليّة التنفيذ يقوم بها الفرد- وحده- وهو سيّد هذه العمليّة"[31].

3- اللغة لها وجود مستقلّ عن الأفراد باعتبار أعيانهم، لا باعتبار مجموعهم؛ إذ "تقع خارج الفرد الذي لا يستطيع- أبدا- أن يخلقها، أو يحوّرها بمفرده؛ فلا وجود للغة إلاّ بنوع من الاتّفاق، يتوصّل إليه أعضاء مجتمع معيّن"[32]. أمّا الكلام فلا وجود

لـه مستقلاّ عن الفرد، إذ هو فعل فرديّ، منوط بالفرد إنجازه وتنفيذه، وله أن يتحكّم في مقتضياته وملابساته وأن يتصرّف فيهما.

4- اللغة لا تخضع لمبدأ القصديّة. أمّا الكلام فهو أمر عقليّ خاضع لمبدأ القصديّة[33]، بدليل أنّ المرء يستطيع الامتناع عن الكلام أو أن يقصد إليه، لكنّه لا يستطيع الامتناع عن اللغة؛ لأنها أمر حتميّ غير مقصود. ويمكن للمرء أن يكون خارج دائرة الكلام، ولا يمكن له أن يكون خارج دائرة اللغة. ولنا أن نصف المرء بأنّه متكلّم أو غير متكلّم، وليس لنا أن نصفه بأنّه ذو لغة أو غير ذي لغة.

5- اللغة لها وجود دائم، فهي حقيقة اجتماعيّة مجسّدة في كلّ لحظة، فحضورها هو حضور دائم. أمّا الكلام فلا وجود له على وجه الدوام، فهو فعل محدود ببداية ونهاية، وهو إنجاز محسوب بالوقت، فحضوره هو حضور آنيّ.

6- اللغة عنصر جوهريّ من عناصر اللسان البشريّ، والكلام عنصر عرضيّ منها، بمعنى أنّ الكلام قد يُعْدَمُ مع وجود اللغة وعناصرِ اللسان البشريّ الأخرى، لكنّ اللغة إذا عُدِمَتْ، عُدِمَتْ معها سائر عناصر اللسان البشريّ الأخرى، كما تُعْدَمُ الأعراض بعُدْمِ الجواهر.

7- اللغة تختلف عن الكلام في أنّها شيء يمكن دراسته وتصنيفه بصورة مستقلّة، فاللغات البائدة (الميّتة) يمكن دراستها وتصنيفها على الرغم من كونها غير متكلَّم بها في زمن الدراسة والتصنيف[34].أمّا الكلام فلا يمكن دراسته وتصنيفه إلاّ بوصفه مظهرا من مظاهر اللغة؛ لأنّه لا يوجد مستقلاّ عن ملابسات غير لغويّة، فهو من هذه الناحية غير متجانس.

8- اللغة- من جهة أنها حقيقة اجتماعيّة، ومن جهة أنّها صور وانطباعات جاهزة في أذهان أبناءِ الجماعة اللغويّة- لها وجود منفكّ عن العمليّة الصوتيّة؛ لأنّها إنّما تقع من "الجزء المحدّد لدائرة الكلام، في المكان الذي ترتبط فيه الصورة السمعيّة بالفكرة"[35]. والكلام- من جهة أنّه يبدأ مع النطق وينتهي به- لا وجود له منفكّا عن العمليّة الصوتيّة؛ لذا يكون جانب اللغة سايكولوجيّا في صفاته جميعها[36]، في حين يكون جانب الكلام المرتبط- دائما- بالعمليّة الصوتيّة سايكوفيزيائيّا[37].

9- اللغة تتمظهر بالكلام ولا تتوجد به، فوجودها قائم بذاتها لا بالكلام، والكلام يتأسّس على اللغة، ويصدر عنها، وينبثق منها، وينوجد بها؛ فلا وجود للكلام بدون اللغة.

وبعد أن تدرّج دي سوسير في الكشف عن ملامح اللغة من خلال ميزها من مجموع عناصر اللسان البشريّ كلّه التي تصاحب كلَّ حدثٍ لغويّ وتتلبّس به، ثُمَّ من خلال جلاء الفروق التي تميزها من الكلام بوصفه وإيّاها يقعان في الجزء السايكولوجيّ من أجزاء الدائرة الكلاميّة؛ أدار زاويةَ النظرِ إلى اللغة من حيثُ كونُها علامة سيميائيّة؛ لِيُحَدِّد مكانتها "من بين الحقائق البشريّة"[38]التي تنتمي إلى حقلٍ معرفيٍّ جديد، موضوعُه "دراسة حياة الإشارات في المجتمع"[39]، لم يُكن قد ظهر في عهد دي سوسير، وتنبّأ هو بظهوره، وأطلق عليه علم الإشارات[40]. قال: "إنّ المميّزات

اللغويّة التي مرّ ذكرها، تبيّن لنا صفة أخرى أكثر أهميّة، وهي أنّ اللغة بعد أن تُحدَّد معالمها من بين معطيات اللسان، يمكن أن تُصنَّف بين الظواهر البشريّة في حين لا يمكن تصنيف اللسان"[41]، والمقصود بـ(الظواهر البشريّة) في هذا النصّ، على وجه التحديد: تلك التي تنتمي إلى نظام الإشارات التي يستخدمها البشر للتفاهم والتواصل والتنظيم. واللغة من ضمن هذه الظواهر. قال: "فاللغة نظامٌ من الإشارات (System of signs) التي تُعبّر عن الأفكار. ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، أو الألفباء المستخدمة عند فاقدي السمع والنطق، أو الطقوس الرمزيّة، أو الصيغ المهذّبة، أو العلامات العسكريّة، أو غيرها"[42]. وتتماز اللغة من سائر النُظم الإشاريّة الأخرى بأنّها نظام إشارة بالصوتِ لا بغيره من وسائل الإشارة الأخرى، وبأنّ "الصفة التي تميز نظام الإشارات عن الأنظمة الأخرى"[43] لا تظهر بوضوح إلّا فيها. فاللغة– إذن– نظامٌ محدّد من النظم الإشاريّة، بل هي "خير ممثّل لنظام الإشارات"[44]، وإذا "أردنا أن ندرك الطبيعة الحقيقيّة للغة؛ فعلينا أن نفهم ارتباطها بالأنظمة الأخرى للإشارات"[45].

ومن نافل القولِ أن نذكرَ أنّ دي سوسير– وهو يتدرّج في بناء مفهوم اللغة– نظر إلى اللغة من زاوية رابعة غير الزوايا الثلاث المذكورة آنفا، هي زاويةُ علاقة اللغةِ بجهاز اللغة، وخلص إلى ضرورة الفصل بين مفهوم اللغة وجهاز اللغة؛ على الرغم من كون أعضاء النطق مهمّة في النطق بالأصوات؛ إذ "الأصوات ليس لها وجود، لولا أعضاء النطق"[46]. والنطق بالأصوات مهمّ في الكلام وضروريّ له[47]. والكلام ضروريّ لتثبيت أركان اللغة[48]. وعلى الرغم من كلّ ذلك تقع أعضاء النطق خارج اللغة، فلا صلة لها بجوهر اللغة؛ لأنّها ليست ممّا هو ماهويّ بالنسبة للغة.

ومثّل سوسير لهذه المسألة بشفرة مورس والأجهزة الكهربائيّة التي تستخدم في إرسالها[49] ، فالشفرة شيء، والأجهزة المستخدمة في إرسالها شيء آخر. تقع الأجهزة خارج الشفرة؛ لأنها ليست منها ولا من نظامها. وكذلك اللغة: هي شيء، وأعضاء النطق بها شيء آخر، فليست أعضاء النطق من اللغة ولا من نظامها؛ ومن أجل هذا كانت شيئا خارجا عن اللغة.

وعلى الرغم من أنّ أعضاء النطق تستعمل للكلام يرى لغويّون أنّ استعمالها للكلام جرى على سبيل المصادفة؛ إذ بإمكان الإنسان أن يستعمل الإشارات المرئيّة بدلا من الرموز الصوتيّة[50]؛ فضلا على أنّ أعضاء النطق منوطٌ بها وظائف فسلجيّة غير وظيفة الكلام، وهذه الوظائف الفسلجيّة هي وظائفها الأساسيّة. أمّا وظيفة الكلام فوظيفة ثانويّة لها، وهذا بخلاف القدمَيْنِ المستعملتين في المَشْيِ[51]، والعينَيْنِ المستعملتين في الإبصار، فالمَشْيُ وظيفة أساسيّة للقدمين، وهما مجعولتان له، والإبصار وظيفة أساسيّة للعينين، وهما مجعولتان له.

وفي هذا السياق– سياق النظر إلى مفهوم اللغة من زوايا متعدّدة، لا من زاوية واحدة– نظر دي سوسير إلى اللغة من زاوية المادّة التي تُكوِّن اللغةَ. وقاده نظرُه في اللغة من هذه الناحية إلى أنّ مفهوم اللغة ينمازُ من مادّة اللغة؛ ذلك أنّ مادة اللغة هي الأفكار

والأصوات، وهما– من وجهة نظر سوسير – عنصران يشتركان في تأدية اللغةِ وظيفتَها[52]، ويأتلف من اشتراكهما شكلُ اللغة ومادّتُها، غير أنّ اللغة في جوهرها ومضمونها شكل لا مادة[53].

وشكلها مركّب من عنصرين مادّيّين، هما الفكرة والصوت. والفكرة والصوتُ لا شكل لأحدهما منفصلا عن الآخر، فكلّ منهما مجرّدا من الشكلّ اللغوي: مادةٌ[54] لا شكل لها، فتفكيرنا "من الناحية السايكولوجية– إذا أغفلنا التعبير عنه بالكلمات– ما هو إلاّ كتلة غير متميّزة، لا شكل لها، وقد اتفق الفلاسفة وعلماء اللغة– دائما– على أنّه لولا الإشارات لما استطعنا أن نميز تمييزا واضحا ثابتا بين فكرتين، فلولا اللغة، لأصبحت[55] الفكرة شيئا مبهما، غير واضح المعالم، إذن لا توجد أفكار يسبق اللغةَ وجودُها، ولا تتميّز هذه الأفكار قبل ظهور اللغة"[56]، والأصوات "كالأفكار من هذه الناحية، إنّ المادّة الصوتيّة، ليست أكثر ثبوتا، ولا أشدّ تحديدا من الفكر"[57]، بل هي مثله تتّسم بالإبهام وعدم التحديد[58]، إذا لم تتشكّل لغويّا.

ومعنى هذا أنّ مضمون اللغة وجوهرها في المفهوم السوسيريّ، إنّما هو في الشكل لا في المادة، فاللغة بحسب هذا المفهوم، هي الشكل المؤتلف من اتّحاد الصورة الصوتيّة (الدالّ)، بالصورة الفكريّة (المدلول)، ليتكوّن بذلك شكل العلامة (الدليل)، التي لا يمكن لنا أن نفصل مكوّنَيْها: الدالّ والمدلول، أحدَهما من الآخر، بل لا يتحقق "هذا الفصل إلاّ عن طريق التجريد؛ فتكون النتيجة لا شيء سوى علم النفس أو النظام الصوتيّ"[59]، ونكون بذلك، قد ابتعدنا عن ميدان علم اللغة الذي هو"منطقة حدود ترتبط فيها عناصر الصوت والفكر؛ فينتج عن ارتباطهما شكل"[60]، هو العلامة (الدليل)، و"ليس مادة"[61]، هي الصوت (الدال) أو الفكر (المدلول) مجرّدين ومنعزلين عن تَشَكُّلِهما في العلامة.

وكان دي سوسير قد أوضح فكرته هذه بالورقة مثلا للغة " وجهها الفكرة، وظهرها الصوت، لا يستطيع المرء أن يقطع الوجه من دون أن يقطع الظهر في الوقت ذاته، وكذلك في اللغة لا يستطيع المرء فصل الصوت عن الفكر، كما لا يستطيع فصل الفكر عن الصوت"[62]، ثُمَّ زادها إيضاحا بأن تمثّلَ اللغةَ مركّبا كيميائيّا، كالماء[63]، فالماء مكوّن من اتّحاد ذرّتي هيدروجين بذرة أكسجين، لكنّ الماء ليس مادة هيدروجين ومادة أكسجين؛ فالهيدروجين مادة، والأكسجين مادة أخرى، وليس مجموع المادتين ماء، إنّما الماء هو الشكل الحاصل من اتّحاد ذرتي الهيدروجين بذرة الأكسجين، فمضمون الماء وجوهره شكل لا مادة. الماء هيأة اتّحاد العناصر المكوّنة له، وليس إجماليّها. وكذلك اللغة هي الهيأة الحاصلة من اتّحاد العنصرين المكوّنين لها: الدالّ والمدلول، وليس إجماليّهما. والهيأة غير المادة. واللغة هيأة، أي: شكل، وليست اللغة مادة.

ومن زاوية أخرى يتجلّى منها الطابعُ النظاميّ للغة، ماز دي سوسير اللغة من تأريخها. فاللغة عنده نظام من القيم الخالصة، لا يحدّدها سوى ترتيب عناصرها في لحظة معيّنة من الزمن، أو هي نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض، تنتج قيمة كلّ عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد[64]. أمّا تأريخ اللغة، فهو حال من التعاقب الزمنيّ، يظهر من خلاله أثر الزمن في عنصر لغوي واحد، معزولا عن سائر عناصر اللغة الأخرى.

ومن أجل هذا ماز سوسير بين محورين أساسيّين للغة:

1– محور التوافق– المحور الأفقيّ– "الذي يمثّل العلاقات بين الأشياء المتزامنة وقد جُرّد عنها التدخّل الزمنيّ"[65].

2- محور التعاقب- المحور العمودي- : "الذي ندرس فيه شيئا واحدا فقط في لحظة واحدة، ولكن تظهر عليه أشياء المحور الأوّل مع تغييراتها"[66].

يشتمل المحور الأوّل على علاقات اللغة الداخليّة المتزامنة؛ كالتذكير والتأنيث والإفراد وغيره (التثنية والجمع في لغات، أو الجمع في لغات أخرى)، وكالتعريف والتنكير، وكالعلاقات الصرفيّة، والعلاقات التركيبيّة في العبارة أو الجملة.

فهذه – ونحوها – كلّها علاقات لغويّة داخليّة متزامنة، تحضر في اللحظة نفسها: التذكير يُستحضر مع التأنيث، والإفراد مع غيره، والتعريف مع التنكير، وصيغة اسم الفاعل مع صيغة اسم المفعول، والفعل الماضي مع الفعل المضارع، وهكذا في غير ما ذُكِرَ من العلاقات، فهذه العلاقات قيمة إحداها من وجود الأخرى.

ويشتمل المحور الثاني على عمليات التطوّر[67] التي حصلت لعناصر لغويّة في مراحل التأريخ المتعاقبة، على أنّ هذه العمليّات لا تؤثّر في اللغة من حيث النظام، إذ يظلّ نظام اللغة ثابتا، على الرغم من تأثير التطوّر التأريخيّ في عناصر منه. قال سوسير: "اللسان ينطوي- دائما- على وجود نظام ثابت؛ كما ينطوي على عمليّة التطوّر، فهو- في كلّ لحظة- نظام قائم بذاته، ونتاج للزمن الماضي"[68]. وزاد على ذلك أنّ المتكلّم لا يدرك حقائق التأريخ في اللغة، ولا يواجه هذه الحقائق حين يتلبّسُ اللغةَ، إنّما يواجه حالا لغويّة[69] حاضرة وراهنة وساكنة.

خذ مثلا من العربيّة: علامات التأنيث: كيف كانت؟ وكيف تطوّرت خلال مراحل من التأريخ؟ وعلامة التعريف: ما أصلها[70] ؟ وأين كان محلها من الكلمة؟ أفي أوّلها كما هي الآن، أم في أخرها كما تذهب إلى ذلك بعض الدراسات[71] ؟ فهذا بحث تأريخيّ في علامة التأنيث، أو في علامة التعريف لا علاقة له بالتأنيث بوصفه قيمة حاضرة في مقابل التذكير، أي: بوصفة علاقة لغويّة داخليّة آنيّة قائمة على استحضار فكرة التقابل، ولا علاقة له بالتعريف بوصفه قيمة لغويّة تستمدّ من وجود ما يقابلها، وهو التنكير.

ومن الملاحظ في هذا الشأن أنّ النظام اللغويّ قد يجري بخلاف ما تسفر عنه معطيات التأريخ، فقد قيل بالأصل الثنائي لأسماء عربيّة[72]، منها: (يد)، و(أخ)، و(أب)، و(حمّ)، و(اسم) ونحوها، لكن نظام اللغة العربيّة يجري في هذه الأسماء على أنّها ثلاثيّة الأصول، حذفت لاماتها أو فاءاتها، ويتأكّد الأصل الثلاثيّ النظاميّ لهذه الأسماء بعود ما حذف منها عند الجمع، والتثنيّة، والتصغير، والنسب، وغيرها من ألوان التصريف الأخرى.

لا ينكر دي سوسير أثر الزمن في اللغة؛ فقد تتعرّض اللغة في تأريخها لطوارئ التغيير والتبديل بفعل تعاقب الزمن عليها في أصواتها وألفاظها، بل إنّ هذا أمر مشاهد في كلّ لغات العالم، وقد بحث شيئا من هذه الطوارئ في كتابه، وذهب إلى أنّ الزمن يغيّر كلّ شيء فما من "سبب يجعل اللغة لا تخضع لهذا القانون العام"[73] لكنّه يدفع أن يكون لهذه الطوارئ التاريخيّة تأثير في اللغة بوصفها نظاما. هذا هو جديد دي سوسير من هذه الناحية، ومن أجله ماز علمين أحدهما من الآخر، كلاهما يتصّدى لدرس اللغة، لكنّ أحدهما يختلف عن الآخر من حيث المنهجيّة والمقصد من النظر في اللغة. هذان العلمان هما:

1- علم اللغة الدايكرونيّ: الذي يدرس العناصر اللغويّة المتعاقبة التي " يحلّ كلّ عنصر منها محلّ العنصر الآخر بمرور الزمن"[74]، ويعتمد هذا العلم المنهج التاريخيّ الذي يصلح لدراسة علم الأصوات، ودراسة التطوّر الدلاليّ للألفاظ، ولكنّه لا يصلح لدراسة العلاقات بين العناصر اللغويّة المتزامنة.

2- علم اللغة السنكرونيّ: وهو العلم "الذي يعالج القيم والعلاقات المتزامنة"[75]، ويستهدف وضعَ المبادئ الأساسيّة للنظام اللغويّ العامّ، ولأيّ نظام لغويّ خاصّ، أي: لمكوّنات أيّة حال لغويّة[76]، ويعود إلى هذا العلم "كلّ ما يطلق عليه بالنحو العامّ"[77]. وتتسم مزاولة هذا العلم بالصعوبة؛ لأنّه يبحث في العلاقات اللغويّة غير المرئيّة، على خلاف العلم السابق: علم اللغة الدايكرونيّ، الذي تتسم مزاولته بأنّها أقلّ صعوبة؛ لأنّه يبحث في حقائق التطوّر اللغويّ، وفي العلاقات المرئيّة بين العناصر اللغويّة المتعاقبة زمنيّا[78].

وترتّب عن مفهوم دي سوسير للغة الذي تتماز به من تاريخها، الفصلُ الصارمُ بين عناصرها الداخليّة وعناصرها الخارجيّة. قال: "إنّ التعريف الذي قدّمتُه للغة ينطوي على إبعاد كلّ شيء يقع خارج كيانها ونظامها، أو بعبارة أخرى كلّ ما يعرف بعلم اللغة الخارجيّ"[79] الذي "يتناول أشياء مهمّة كثيرة، وهي الأشياء التي تخطر على بالنا حين نبدأ بدراسة اللسان"[80] البشريّ؛ كالأشياء التي تتعلّق بالسلالات البشريّة الناطقة، أو تربط تاريخ لغة ما بقوم ما أو بحضارة ما، أو تربط اللغة بتاريخ سياسيّ معيّن أو بحدث تاريخيّ عظيم أو بمؤسّسة اجتماعيّة أو دينيّة كالكنيسة أو المدرسة أو غيرهما[81]. فهذه الأشياء كلّها- على ما لها من أهميّة- تُعدُّ من العناصر الخارجيّة بالنسبة للغة؛ ذلك " أنّ اللغة نظام له ترتيب خاصّ به. ويمكن توضيح ذلك بتشبيه النظام اللغويّ بالشطرنج، فما هو خارجيّ في الشطرنج يمكن فصله بسهولة عمّا هو داخليّ، فإذا استخدمنا أجزاء من الشطرنج مصنوعة من العاج بدلا من الخشب، فإنّ هذا التغيير لا أثر له في نظام الشطرنج. أمّا إذا قلّلنا من أجزاء الشطرنج، أو أضفنا إليها؛ فإنّ هذا التغيير له أثر كبير في اللعبة. إذن ينبغي للمرء أن يميز بين ما هو خارجيّ وما هو داخليّ. ويستطيع المرء في كلّ حالة أن يحدّد طبيعة الظاهرة باستخدام هذه القاعدة، فكلّ شيء يُحدث تغييرا في النظام- بأيّ أسلوب كان- إنّما هو داخليّ"[82].

ومن زاوية النظر إلى المنطوق والمرسوم من عناصر اللسان البشريّ، يفضي التصوّر اللغويّ لدي سوسير إلى ميز مفهوم اللغة من الكتابة من خلال الآتي[83]:

1- أنّ اللغة والكتابة نظامان متمايزان من الإشارات، وأنّ الهدف الوحيد الذي يُسوّغ وجود الكتابة هو التعبير عن اللغة.

2- اللغة- في الأساس- هي الصورة المنطوقة. أمّا الكتابة، فهي لغة ثانية للتعبير بالرسم عن الصور اللغويّة المنطوقة.

3- اللغة تقليد شفهيّ ثابت مستقلّ عن الكتابة.

4- الكتابة نظام مخترع، واللغة غير مخترعة.

وهذا الذي عليه دي سوسير من مسألة الفصل بين اللغة والكتابة، هو أمر قد تنبّه عليه اللغويّون العرب من قبل، حين حدّوا الكلام بأنّه: "اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها"[84]، وقد نصّوا على أنّ "تصديره بـ(اللفظ) مخرج للخطّ ونحوه ممّا هو كاللفظ في تأدية المعنى"[85]. قال الأشموني: " فخرج بـ(اللفظ) غيرُه ممّا ينطلق عليه في اللغة كلام؛ كالخطّ، والرمز، والإشارة"[86]. وقال الخضري: "قوله:

(فاللفظ جنس) لم يخرج به الدوال الأربع؛ لأنّ شأن الجنس الإدخالُ، وما لم يتناوله خرج عنه لا به. وبعضهم أخرجها به؛ نظرا لأنّ بين الجنس وفصله العموم الوجهيّ؛ فيخرج بكلٍّ ما دخل في الآخر. والدوال هي: الكتابة، والإشارة، والعقد بالأصابع الدالّة على أعداد مخصوصة، والنُّصَبُ– كغرف– وهي: العلامات المنصوبة، كالمحراب للقبلة جمعَ نُصْبَة كعُقْدة. أمّا النُّصُب– بضمّتين– فالأصنامُ"[87].

والخلاصة أن دي سوسير لم يسعَ إلى التعريفِ باللغة من زاوية واحدة؛ فانتشرت به العبارة؛ وتشعبتْ عليه؛ وتفلّتَتْ من بين يديه خيوط الحدِّ الذي يُحكمُ به نسيجَ التعريفِ المنطقي للغة، بل كان سعيُه إلى التعريف باللغة من خلال إبراز ملامحها العامّة، وسماتها البارزة، ومضامينها الخاصّة، التي تُظْهِرُ صورتَها الواضحة غير الملتبسة؛ من زوايا متعدّدة، تُظهرُ كلُّ زاوية منها واحدا أو غيرَ واحد من تلك المضامين والسمات والملامح التي من مجموعها يتحصّل مفهوم اللغة عند دي سوسير؛ إذ لا تنفهمُ اللغة عنده، من جانب واحد، بل من جوانب متعدّدة؛ فهي– عنده– حقيقة اجتماعيّة، وظاهرة سايكولوجيّة، وعلامة سيميائيّة، وشكلٌ لا مادّة، وراهنٌ معزول عن التاريخ، وبنية نسقيّة، ومجموعة من القيم الخالصة. وليستْ مضمونا واحدا من هذه المضامين، بل هي هذه المضامين كلّها. وهي مضامين لا تفي بإيضاحها الحدود المنطقيّة، بل يحتاج أمرُ جلائها إلى التوصيف، والشرح، والتدرّج في بناء المفاهيم؛ وغير ذلك من وسائل الإيضاح التى ظُنَّ أنّها من قبيل انتشار العبارة وتشعّبها. وهي ليستْ منه.

الهوامش:

(1) المقصود- هنا- التعريف بالحدّ، وهو التعريف المنطقي القائم على الجنس والفصل، وهذه هي طريقة التعريف الشائعة في مدوّنات النحو العربيّ. ولمعرفة كيف يكون التعريف بالحدِّ أو بغيره وهو الرسم، يُنظر: تحرير القواعد المنطقيّة، الرازي، إندونيسيا، مكتبة محمّد بن أحمد نبهان: 79 فما بعدها.

(2) الخصائص، ابن جنّي، تحقيق: محمّد علي النجّار، بيروت، دار الهدى، ط2: 2/ 33.

(3) ابن جنّي عالم العربيّة، د.حسام سعيد النعيميّ، بغداد: دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، 1990م: 141- 145.

(4) ابن جنّي عالم العربيّة: 144- 145.

(5) أي: كلّ ما يرافق العمليّة الكلاميّة من عمليّات لغويّة، وغير لغويّة كالعمليّات الفيزيائيّة، والعضويّة، والذهنيّة، والنفسيّة، التي تصاحب كلّ حدث لغويّ. وقد وسمها سوسير بـ"مجموعة العناصر التي تؤلّف اللسان". علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ترجمة د.يوئيل يوسف عزيز، ومراجعة د.مالك يوسف المطّلبي، بغداد، دار آفاق عربيّة، 1985م: 29.

(6) يرد مصطلح اللغة في هذه المقالة، مرادا به ما أراده سوسير بالمصطلح الأجنبي (Langue)، لا ما أراده بالمصطلح الأجنبي الآخر (Langage).

(7) يرد مصطلح لسان بشري في هذه المقالة، مرادا به ما أراده سوسير بالمصطلح الأجنبي (Langage)، لا ما أراده بالمصطلح الأجنبي الأخر (Langue). ومن البدهيّ أنّ سوسير لم يستعمل لا (لغة) ولا (لسان)؛ لأنّهما لفظان عربيّان ليسا من اللغة التي ألقى بها سوسير محاضراته التي دوّنت بعد مماته، بل استعمل (Langue) و(Langage)، وترجم يوئيل عزيز الأولى بـ(لغة)، والثانية بـ(لسان) وبـ(اللسان البشري)، في حين انعكس الأمر في ترجمات أخر؛ فترجم أصحابُها باللغة (Langage) وباللسان (Langue). ومن المعلوم أنّ اللغة واللسان لفظان ترادفا في الموروث اللغويّ العربيّ، ومن التمحّل ترجيح أحدهما على الآخر، وكلاهما يصحّ أن يستعمل في مقابل ما اصطلح عليه سوسير بـ(Langue) على أن يترجم المصطلح (Langage) بعبارة شارحة تُفهم أنّ سوسير يقصد به (كلّ ما يصاحب الحدث الكلاميّ من عمليّات لغويّة وذهنيّة وعضويّة ونفسيّة وفيزيائيّة)، واللغة أو اللسان لا يعبّران عن هذا المجموع، وقد أحسن الدكتور أحمد نعيم الكراعين حين ترجم (Langage) بـ(القدرة اللغويّة عند الإنسان). ينظر: فصول في علم اللغة العام، سوسير، ترجمة د.أحمد نعيم الكراعين، الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة:31.

(8) أي: ما اصطلح عليه باللسان البشريّ (Langage).

(9) في الأصل: البشكيّة. وهو خطأ طباعيّ صوابه: البشريّة.

(10) علم اللغة العام: 27- 28.

(11) "حتّى عندما تتكلّم إلى نفسك؛ فأنت تجرّدُ من شخصك فردا متكلّما، وآخر سامعا". أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة د.أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط8، 1419هـ، 1998م: 40.

(12) علم اللغة العام: 30.

(13) علم اللغة العام: 30.

(14) علم اللغة العام: 30.

(15) علم اللغة العام: 30.

(16) علم اللغة العام: 30.

(17) علم اللغة العام: 30.

(18) علم اللغة العام: 30.

(19) ينظر: علم اللغة العام: 31- 32.

(20) علم اللغة العام: 31.

(21) قال دي سوسير: "إنّ الأفراد الذين تربطُ بينهم رابطةُ اللسان، يتّخذون لأنفسهم نوعا من القياس- فهؤلاء الأفراد جميعم يستخدمون دائما الإشارات نفسها التي تدلُّ على الأفكار نفسها تقريبا- فكيف تتبلور اللغةُ اجتماعيّا على هذا النحو؟ وما أجزاء الدائرة التي تدخل في عمليّة التبلور الاجتماعيّ هذه؟ إنّ جميع الأجزاء قد لا تدخل في هذه العمليّة بصورة متساوية؛ فالجزء غير السايكولوجيّ يمكن إهماله منذ البداية. فعندما نسمعُ أناسا يتكلّمون لغة لا نفهمها؛ فإنّنا نسمع الأصوات، ولكنّنا نبقى خارج العنصر الاجتماعيّ؛ لأنّنا لا نفهم هؤلاء الناس، كما أنّ الجزء السايكولوجيّ للدائرة لا يشترك بأكمله: فالجانب التنفيذيّ لا وجود له؛ فالمجموع لا يقوم-أبدا- بعمليّة التنفيذ؛ لأنّ عمليّة التنفيذ يقوم بها الفرد- وحده- وهو سيّد هذه العمليّة. وسأطلق على الجانب التنفيذيّ الكلام (parole)". علم اللغة العام: 31- 32.

(22) علم اللغة العام: 31.

(23) علم اللغة العام: 31.

(24) علم اللغة العام: 31.

(25) ينظر علم اللغة العام: 31- 33.

(26) علم اللغة العام: 38.

(27) علم اللغة العام: 38.

(28) ساد النظرُ إلى اللغةِ على أنّها حقيقة اجتماعيّة، في نهاية القرن التاسع عشر؛ ليُهجر به النظرُ إليها على أنّها تشبه الكائن الحيّ، الذي كان سائدا من قبلُ، أيّ: ليُنظرَ إليها كما ينظر إلى الحقائق الاجتماعيّة، لا كما يُنظر إلى الكائنات البيولوجيّة. ينظر: المدارس اللغويّة: التطوّر والصراع، جيفري سامبسون، ترجمة د.أحمد نعيم الكراعين، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة، ط1، 1413هـ، 1993م: 35 فما بعدها. ولهذا الكتاب ترجمةٌ أخرى قام بها د.محمّد زياد كبّة، تحت عنوان: (مدارس اللسانيّات: التسابق والتطوّر)، الرياض، جامعة الملك سعود، 1417هـ، فلينظر منه: 25 فما بعدها.

(29) ينظر: علم اللغة العام: 32.
(30) ينظر: علم اللغة العام:32.
(31) علم اللغة العام: 32.
(32) علم اللغة العام: 33.
(33) ينظر: علم اللغة العام: 32.
(34) ينظر: علم اللغة العام: 33.
(35) علم اللغة العام: 33.
(36) قال سوسير: "ينبغي أن نذكر أنّ صور الكلمات تتميّز عن الصوت نفسه، وأنّ هذه الصور إنّما هي سايكولوجيّة، كما أنّ الأفكار التي ترتبط بها سايكولوجيّة". علم اللغة العام: 31.
(37) ينظر: علم اللغة العام: 37.
(38) علم اللغة العام: 34.
(39) علم اللغة العام: 34.
(40) ينظر: علم اللغة العام: 34.
(41) علم اللغة العام: 34.
(42) علم اللغة العام: 34.
(43) علم اللغة العام: 35.
(44) علم اللغة العام: 87.
(45) علم اللغة العام: 35.
(46) علم اللغة العام: 26.
(47) ينظر: علم اللغة العام: 37.
(48) ينظر: علم اللغة العام: 38.
(49) ينظر: علم اللغة العام: 37
(50) ينظر: علم اللغة العام: 28.
(51) ينظر: علم اللغة: 28.
(52) ينظر: علم اللغة العام: 131
(53) ينظر: علم اللغة العام: 132.
(54) توصيف الفكرة بأنّها مادّةٌ إنّما هو من جهةِ أنّها مكوّن لغويّ؛ فهي العنصر المقابل للصوت في تكوين اللغة، لا من جهة أنّها تتحيّز كما تتحيّز المادّة.
(55) في النصّ (أصبحت).
(56) علم اللغة العام: 131.
(57) علم اللغة العام: 131.
(58) ينظر: علم اللغة العام: 131.
(59) علم اللغة العام: 132.
(60) علم اللغة العام: 132.
(61) علم اللغة العام: 132.
(62) علم اللغة العام: 132.
(63) علم اللغة العام: 122.
(64) ينظر: علم اللغة العام: 99. وعلى هذا المعنى عقد سوسير فصل (القيمة)، من كتابه
(65) علم اللغة العام: 98- 99.
(66) علم اللغة العام: 99.
(67) نعني بالتطوّر- هنا- كلّ تغيير حصل لعنصر لغويّ سلبا أو إيجابا.
(68) علم اللغة العام: 27.
(69) ينظر: علم اللغة العام: 100.
(70) ينظر: الساميّون ولغاتهم: تعريف بالقرابات اللغويّة والحضاريّة عند العرب، د.حسن ظاظا، دمشق: دار القلم، بيروت، الدار الشاميّة، ط2، 1410هـ، 1990م: 119.
(71) ينظر: بحوث في الاستشراق واللغة، د.إسماعيل أحمد عمايرة، بيروت، مؤسّسة الرسالة، وعمّان، دار البشير، ط1، 1417هـ، 1996م: 57.
(72) ينظر: علم اللغة العربيّة (مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التراث واللغات الساميّة)، د.محمود فهمي حجازي، الكويت، وكالة المطبوعات: 205 فما بعدها. و: الفلسفة اللغويّة والألفاظ العربيّة، جرجي زيدان، بيروت، دار الحداثة، ط1، 1987م: 107 فما بعدها.
(73) علم اللغة العام: 95.
(74) علم اللغة العام: 163.
(75) علم اللغة العام: 120.
(76) ينظر: علم اللغة العام: 120.
(77) علم اللغة العام: 120.
(78) ينظر: علم اللغة العام: 120.
(79) علم اللغة العام: 39.
(80) علم اللغة العام: 39.
(81) ينظر: علم اللغة العام: 39.
(82) علم اللغة العام: 41.
(83) ينظر: علم اللغة العام: 42 فما بعدها.
(84) شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، ط20، 1400هـ، 1980م: 1/ 14.
(85) شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق د.عبد الرحمن السيّد، ود.محمّد بدوي المختون، القاهرة، دار هجر، ط1، 1410هـ، 1990م: 1/ 4.
(86) حاشية الصبّان على الأشموني (المتن)، دار الفكر: 1/ 20- 21.
(87) حاشية الخضري على ابن عقيل، طبعة مصطفى البابي الحلبي: 1/ 14- 15.

ثبت المظان:

1- ابن جنّي عالم العربيّة، د.حسام سعيد النعيميّ، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، 1990م.

2- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة د.أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط8، 1419هـ، 1998م.

3- بحوث في الاستشراق واللغة، د.إسماعيل أحمد عمايرة، بيروت، مؤسّسة الرسالة، وعمّان، دار البشير، ط1، 1417هـ، 1996م.

4- تحرير القواعد المنطقيّة، محمود بن محمّد الرازي (766هـ)، إندونيسيا، مكتبة محمّد بن أحمد نبهان وأولاده.

5- حاشية الخضري على ابن عقيل، طبعة مصطفى البابي الحلبي.

6- حاشية الصبّان على الأشموني، دار الفكر.

7- الخصائص، ابن جنّي (392)، تحقيق: محمّد علي النجّار، بيروت، دار الهدى، ط2.

8- الساميّون ولغاتهم: تعريف بالقرابات اللغويّة والحضاريّة عند العرب، د.حسن ظاظا، دمشق، دار القلم، وبيروت، الدار الشاميّة، ط2، 1410هـ، 1990م

9- شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، ط 20، رمضان 1400هـ، يوليو 1980م.

10- شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق د.عبد الرحمن السيّد، ود.محمّد بدوي المختون، القاهرة، دار هجر، ط1، 1410هـ، 1990م.

11- علم اللغة العام، فرديناند سوسير، ترجمة د.يوئيل عزيز، ومراجعة د. مالك يوسف المطّلبي، بغداد، دار آفاق عربيّة، 1985م.

12- علم اللغة العربيّة (مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التراث واللغات الساميّة)، د.محمود فهمي حجازي، الكويت، وكالة المطبوعات.

13- فصول في علم اللغة العام، سوسير، ترجمة د.أحمد نعيم الكراعين، الإسكندريّة، دار المعرفة الجامعيّة.

14- الفلسفة اللغويّة والألفاظ العربيّة، جرجي زيدان، بيروت، دار الحداثة، ط1، 1987م.

15- مدارس اللسانيّات، التسابق والتطوّر، جفري سامسون، ترجمة د.محمّد زياد كبّة، الرياض، جامعة الملك سعود، 1417هـ.

16- المدارس اللغويّة، التطوّر والصراع، جيفري سامبسون، ترجمة د.أحمد نعيم الكراعين، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1413هـ، 1913م.

Saeed ahmed albatati

Abstract

De Saussure did not provide an Aristotelian definition for language but he clarified clearly the concept of language through distinguishing it from other things that associate with every linguistic act, therefore, it will be illogical to search in de Saussure's Course in General Linguistics for such Aristotelian definitions which are so familiar in the Arabic books of grammar. It is also illogical to compare de Saussure's book or any chapter of it with an Aristotelian definition even if that definition is near from de Saussure's concepts of language. This mistake was committed by Al-Nuaimi who compare between de Saussure's book and Ibin Jinni's Aristotelian definition of languages as "sounds used by each nation to communicate their purposes." The researcher discusses what Al- Naimi said in this regard coming to the conclusion that de Saussure did not aim at defining the language focusing on one of its aspects. De Saussure defined the language through showing its general features, distinct characteristics, special meanings which give a clear unambiguous picture for the language from different various angles. Each angle reveals one or more than one of these features, characteristics or meanings. The researcher shows that the Saussurean concept of language is obtained from the total sum of all these features, characteristics and meanings. According to de Saussure language is not understood from one aspect but from various aspects. It is a social fact, a psychological phenomenon, a semiotic sign not a material, a synchronic group of values, a systematic structure, and a group of values. It is not one meaning but all the meanings that cannot be clarified by an Arstotelian definition since its clarification needs specification, description, explanation and gradation of concept formation.